﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 89 - 90]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

عطفُ الإخراجِ من الرَّحمِ العقيمِ على الإخراجِ من الحوتِ الجسيمِ

لَمّا كانَ منْ شأنِ يونسَ ﷺ أنْ أخرجَهُ اللّٰهُ تعالى مِنْ بطنِ الحوتِ إخراجًا غيرَ معهودٍ؛ عَطَفَ عليهِ ما كانَ من قصَّةِ زكريا ﷺ في أنَ وهبَهُ الحقُّ سبحانَهُ ولدًا منْ بطنٍ لمْ يعهدِ الحملَ لما كانَ منْ مثلِهِ في اليأسِ والعقمِ[1]، فالمناسبةُ عطفُ معجزةِ الإخراجِ من بطنِ الأمِّ – الَّتي لا تلدُ – على معجزةِ الإخراجِ من بطنِ الحوتِ؛ لتكونَ الولادتان مختلفتين في الشَّكلِ والهيئةِ والأسبابِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرۡدٗا﴾: والفردُ ما كانَ وحدَهُ منفردًا، ويوصفُ بهِ الحقُّ سبحانَهُ؛ لتفرُّدِهِ بالأمرِ والرُّبوبيةِ من دونِ خلقِهِ، وهو دالٌّ على الوحدةِ، ومنهُ الوترُ، وفردَ الرَّجلُ؛ إذا تفقَّهَ، واعتزلَ عن الخلقِ، وخلا بالأمرِ والنَّهي، والفردُ ما كانَ غيرَ مختلطٍ بغيرِهِ، وهوَ ما كانَ مستغنيًا عن كلِّ مركَّبٍ ونحوِهِ، وما كانَ لا نظيرَ لهُ؛ يُسمّى فردًا، وهو مِن صفاتِهِ تعالى، والفرديَّةُ: توحُّدُ الشَّيءِ وانعزالُهُ عمّا يشاكلُهُ، فلا يتَّصلُ بهِ[2]، ومعنى الفردِ في الآيةِ، أي: وحيدًا بدون ولدٍ.

2) ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾: الوارثُ صفةٌ من صفاتِ الباري ﷻ، ومعناهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 468.

(2) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث، والراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرد).

الدّائمُ الباقي بعدَ فناءِ خلقِهِ، وهوَ الَّذي يرثُ الأرضَ ومَنْ عليها، والميراثُ الشَّيءُ الَّذي يكونُ لقومٍ، ثمَّ ينتقلُ إلى آخرينَ بنسبٍ أوْ سببٍ، ويكون الميراث حسّيًّا ومعنويًّا، ومعنى الوارثين: الَّذين يرثون سابقيهم، فالله سبحانه وتعالى هو الوارث على الحقيقة[1].

3) ﴿وَأَصْلَحْنَا﴾: جذرُهُ اللُّغوي (صلح)، والاسمُ منهُ الصَّلاحُ، وهوَ نقيضُ الطّلاحِ، والإصلاحُ نقيضُ الإفسادِ، ويكونُ في الأعمالِ والأمورِ، والصَّلاحُ مختصٌّ بالأفعالِ كثيرًا، ويقابلُ بالفسادِ تارةً، وبالسَّيّئةِ تارةً أخرى، وإصلاحُ الإنسانِ يكونُ بخلقِهِ صالحًا، أو بإزالةِ الفسادِ عنهُ بعدَ وجودِهِ، وربَّما يعبَّرُ عن الشَّيءِ المائلِ للكثرةِ بكونِهِ صالحًا، وإصلاحُ الشَّيءِ بعدَ فسادِهِ يكمنُ في إقامتِهِ، وهوَ سلامةُ الشَّيءِ بعدَ التئامِهِ على حالِهِ الأصليَّةِ؛ ليكونَ تامَّ النَّفعِ والخيرِ لما أريدَ لهُ، أوْ وُجدَ مِنْ أجلِهِ كإصلاحِ الفاسدِ من الأشياءِ[2]، ومعنى ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾: أنَّها كانت عاقرًا، فجعلَها اللّهُ تعالى ولودًا[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـــاءُ زكـريّـا عليه السلام جامعٌ بين الـحـرص على الـدَّعـوةِ وطلب الولد

تُخاطب الآيةُ النَّبيَّ ﷺ بأن يذكرَ زكريّا عليه السلام حالةَ ندائِهِ ربَّهُ بأنْ يهبَ لهُ الولدَ، وألّا يتركَهُ وحيدًا، لا ولدَ لهُ ولا وارثَ، يقومُ بعدَهُ بأعباءِ الدَّعوةِ إلى اللّهِ تعالى، وإنْ لمْ تفعلْ - يا ربُّ - فالأمرُ لكَ، فأنتَ خيرُ وارثٍ، ولمّا كانَ هذا دعاءَهُ؛ استجابَ لهُ الحقُّ سبحانَهُ، ولبّى نداءَهُ، فوهبَ لهُ ولدَه يحيى عليه السلام، وأصلحَ لهُ امرأتَهُ بأنْ أزالَ عنها موانعَ الولادةِ، فأنجبتْ لهُ بعدَ الكِبَرِ والعقمِ؛ وإنَّ المذكورينَ من الأنبياءِ - ومنهمْ زكريا ومَنْ معهُ - كانَ مِنْ صفاتِهمُ المبادرةُ إلى

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 4/ 329.

(2) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صلح).

(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 18/ 248.

طاعتِنا، والتَّقرُّبُ إلينا، فإنَّهمْ ما استحقّوا ذلكَ إلّا لمسارعتِهم إلى الطّاعةِ وتحصيلِها، كما هو شأنُ المؤمنِ، وإنَّهمْ كانوا معَ مسارعتِهمْ تلكَ يفزعونَ إلى اللّهِ رغبةً في ثوابِهِ، ورهبةً مِنْ عقابِهِ، وهم على مخافةٍ ثابتةٍ في القلبِ غيرِ مفارقةٍ له.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى العطفِ ودلالتُه:

استكمالٌ لصور الصَّبرِ الَّتي لم تكن إلّا للخُلَّصِ من المؤمنين

قولُه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ معطوفٌ على ما سبقَ من ذكرِ الأنبياء السّابقين من لدنِ أيّوبَ وإسماعيلَ وإدريسَ وذي الكفلِ، ويونسَ ﷺ، أي: (واذكرْ عبدَنا زكريا ﷺ، كما ذكرت السّابقين، وانظر إلى هذا الصَّبرِ على عدمِ وجودِ الولد، مع شديد الاحتياجِ والشَّوق له)، فهي صورةٌ من صوَرِ الصَّبر على بلاء المنعِ.

اتِّساقُ السِّمةِ التَّعبيريَّةِ:

النِّـــداءُ هو الجامعُ بين صوَر الصَّبرِ النَّبويِّ

انتقى النَّظمُ المعجزُ لفظَ النِّداء في هذه الآية، لتكونَ متَّسقةً في معانيها ومبانيها مع السّياق الواردة فيه، وهو المناسب لما حصلَ لزكريا ﷺ من انتفاءِ الولدِ الَّذي يرثُهُ، ويقومُ بأعباءِ الدَّعوةِ إلى اللّه من بعدِهِ، فحينها انقطعَ إلى ربِّه مناديًا؛ ليتماثل مشهدُهُ، ويتقارب مع مشهد بقيَّة الأنبياء الصّالحين، فإنَّ لكلِّ نبيٍّ نداءَهُ المتعلِّق بصبرِهِ، فمنهم من صبر على المرض، ومنهم من صبر على التقام الحوت له، وزكريّا ﷺ صبر على عدم وجود الولد، فكان لفظُ النِّداء هو الجامع بين هذه الصّورِ من الصَّبر النَّبويّ.

عنوانُ الرُّبوبيَّةِ ألصقُ بالهبة ويفيضُ بالعطف والعناية واللُّطف

فائدةُ ذكرِ الرُّبوبيَّةِ:

في اصطفاءِ صفةِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ إشارةٌ إلى صفةِ الإحسانِ والإنعامِ على العبدِ من الحقِّ

سبحانَه؛ لما في هذهِ الصِّفةِ من صفاتِ العطفِ والحدبِ والعنايةِ واللُّطفِ والإحسانِ، وطلبُ هبة الولد ألصقُ بعنوان الرُّبوبيَّة؛ إذِ الرَّبُّ هو الواهب الخالق المرّبي اللطيف سبحانه.

غرضُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى الضَّميرِ:

أُضيف لفظُ الرُّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ إلى الضَّميرِ العائدِ على زكريا ﷺ تحبُّبًا وتقرُّبًا[1] من المولى سبحانَه، فذلك أحرى بإجابةِ طلبِه وتلبيةِ ندائِه.

علَّةُ فصلِ الجملةِ:

جملة الدُّعاء بيانٌ لجملة النِّداء

فُصِلَت جملة ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾؛ لأنَّها مبيِّنةٌ لما قبلَها[2] من قولِه: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾؛ فإنَّ نداءَ زكريا ﷺ ربَّهُ، حقيقتُهُ دعوتُه إيّاه بأن يهبَهُ الولدَ، ولا يتركَهُ فردًا، لا وارثَ له، أو أن تكونَ من باب الاستئناف البيانيِّ، كأنَّ سائلًا قد سأل: فبماذا نادى ربَّهُ؟ فجاء الجواب ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾، والسَّببان متقاربان.

نكتةُ حذفِ أداةِ النِّداءِ:

قربُ القلوبِ من باريها يطوي الألفاظَ

القياسُ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أن يكونَ بأداةِ النِّداءِ على تقديرِ (يا ربُّ)، غيرَ أنَّه آثرَ حذفَها؛ لإظهارِ التَّقرُّبِ[3] من الحقِّ سبحانَه؛ لدلالتِها على البُعدِ، وأنَّ من شأنه أن يكونَ قريبًا، حاضرًا لا يحتاجُ في ندائِه إلى وسائطَ.

نكتةُ حذفِ ياءِ الإضافةِ:

موقفُ زكريا موقفُ التَّعجُّلِ لا التَّفصيلِ والإبطاءِ

كلُّ موضعٍ في القرآنِ الكريمِ فيهِ مقامُ تفصيلٍ؛ يأتي فيه بالياءِ الدّالَّةِ على الإضافةِ، ولمّا كانَ مِنْ شأنِ زكريا ﷺ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ﴾ الإيجازُ، وطلبُ الولدِ في موقفِ التَّعجُّلِ والسُّرعةِ، فقدْ بلغَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 468.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 135.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 468.

من الكبرِ عتيًّا، ولمْ يتبقَّ من عمرِه ما يكونُ فيهِ متأنّيًا؛ حذفَ ياءَ الإضافةِ، فليسَ الموضعُ ههنا موضعَ تفصيلٍ وإبطاءٍ.

غرضُ الدُّعاءِ:

قولُه ﷺ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، وإن كانَ لفظُه لفظَ النَّهي، إلّا أنَّ مثلَ هذهِ الصيغة إذا صَدَرَتْ مِنَ العبدِ لسيِّدِهِ، فإنَّها تُخَرَّجُ مخرجَ التَّضرُّعِ[1].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الفردِ على مَن لا ولدَ له:

تشبيهُ مَن لا ولدَ له بالمنفردِ الَّذي لا قرينَ له

أطلق النَّظم الجليلُ لفظَ ﴿فَرْدًا﴾ على مَن لا ولدَ له لإرادةِ تشبيهِهِ بالمنفردِ الَّذي لا قرينَ له، ولأنَّ الولدَ يكونُ مع أبيه كالشَّفعِ؛ لأنَّه كالجزءِ منه[2]، وهذه الفرديَّةُ باعتبارِ الفرعِ لا الأصل، فإنَّ زكريّا مع والده ليس بفردٍ، لكن لمّا كان شيخًا كبيرًا، وهو بحاجةٍ إلى الولد؛ شبَّهَ نفسه بالمنفرد الفاقد للرَّفيق.

نكتةُ المجازِ بالحذف:

أدبُ الدُّعاءِ حاضرٌ في النَّظم واللَّفظ والمعنى

عدلَ النَّظمُ عن صيغةِ الدُّعاء إلى الإخبار، فقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ دعاءٌ، وجملة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ إخبارٌ، فلم يقل: (وارزقني وارثًا)، وذلك أنَّ جملة الإخبارِ قد تضمَّنتْ ذلك، فكأنَّه قال: ربِّ لا تذرني فردًا، وارزقني وارثًا، وأنت خيرُ الوارثين، ونكتةُ حذفِ هذه الجملة بيانُ أدب الدُّعاء، فإنَّه لمّا دعا بألّا يبقى وحيدًا؛ اكتفى به عن التَّصريح بطلب الولدِ، ثم ذكر جملةَ الخبرِ زيادةً في بيانِ الأدب الجمِّ.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ:

مِن حسنِ الأدبِ الاستسلامُ والتَّفويضُ بعدَ السُّؤالِ والطلبِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ دالَّةٌ على الاستسلامِ والخضوعِ والتَّفويضِ له سبحانَه بعدَ السُّؤالِ، وكأنَّه

(1) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 68.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 135.

قالَ: (الأمرُ إليك بعدَ سؤالي، فإن لم يحصلِ المرادُ، ولم ترزقْني؛ فإنَّك خيرُ الوارثين)[1]، كما أنَّ في التَّعبيرِ بهذه الجملةِ - بعدَ ندائِه أن يهبَه اللهُ تعالى الولدَ الوارثَ - قد بلغَ أقصى درجاتِ الأدبِ مع الحقِّ سبحانَه، فإنَّه جعلَ وراثةَ المولى ﷻ أولى من وراثةِ ذي القرابةِ القريبةِ[2].

دلالةُ استعمالِ صيغةِ التَّفضيلِ ﴿خَيْرُ﴾:

الخيريَّةُ دالَّةٌ على شمولِ الإرثِ وبقائِه

لَمّا كانَ الحقُّ سبحانَهُ هو الغنيَّ عن الإرثِ، وكثيرًا ما يمنحُ إرثَ بعضِ عبيدِهِ عبيدًا غيرَهمْ؛ فهو تعالى الحقيقُ بأنْ يفعلَ في إرثِ زكريا ﷺ من العلمِ والحكمةِ ما يحبُّهُ، ويرضاهُ بأن يهبَهُ ولدًا منَّةً منه وفضلًا[3].

فأوردَ الخبرَ بصيغةِ تفضيلٍ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، فـ﴿خَيْرُ﴾ خبرٌ عن المبتدأ ﴿وَأَنتَ﴾[4]، والمعنى: (أنَّ إرثكَ "خيرُ إرثٍ؛ لأنَّهُ أشملُ وأبقَى، وأنتَ خيرُ الوارثينَ في تحقُّقِ هذا الوصفِ")[5]، فالخيريَّةُ ليستْ دالَّةً على تفضيلِ شيءٍ على شيءٍ، وإنَّما على شمولِ الإرثِ ودوامِهِ وبقائِه؛ فهي تحمل معنى المبالغة، أي: لا وارثَ خيرٌ منك.

فائدةُ ذكرِ صفةِ الوارثِ:

الوارثُ الحقُّ هو القاضي بالهبةِ والمنع

لَمّا أرادَ زكريا ﷺ الثَّناءَ على ربِّهِ تمهيدًا لإجابتِه في جملةِ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ اختارَ من صفاتِه العليا ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، أي: إنَّك أنت الوارثُ الحقيقُ بذلك، فأفِض عليَّ من صفتِك العليَّةِ هذه شيئًا من مطلوبي ومرادي، وذلك شائعٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ أن يذكرَ الدّاعي

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 69.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4910.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469.
(4) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 91.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 136.

صفةً من صفاتِ الحقِّ سبحانَه، تتناسبُ مع مطلوبِ العبدِ ومرغوبِه ومن جنسِها[1].

بلاغةُ الاحتراسِ:

طلبُ الوارثِ لأجلِ النُّبوَّةِ والعلمِ والحكمةِ لا المالِ والمعونةِ

بعدَ أن نادى زكريّا ﷺ ربَّهُ ألّا يتركَه فردًا، ويهبَه ولدًا يرثُه من بعدِه؛ عقَّبَ بكلامِه هذا بجملةِ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ من بابِ الاحتراس[2] لا للمدعوِّ سبحانه، بل هو احتراسٌ يقوله المتكلِّم لنفسِه، ولمن يسمعه من النّاس، فهو إرثُ النُّبوَّةِ والعلمِ والحكمةِ، لا إرثُ المالِ أو المعونةِ أو النُّصرةِ والأيْدِ، ولو أريدَ ذلك؛ لكانَ التَّعقيبُ (وأنتَ خيرُ النّاصرين) ونحوه؛ ليكونَ الختامُ مناسبًا للابتداءِ؛ فإنَّه من سُبُلِ تحسينِ الكلامِ، وملتزمٌ في كلامِ الملكِ العلّامِ[3].

نكتةُ العطفِ بالفاءِ:

مناسبةُ سرعةِ الإجابةِ للمسارعةِ في الخيراتِ

والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ عاطفةٌ دالَّةٌ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ من دونِ مهلةٍ؛ إذ جاء الجوابُ عقبَ سؤالِه[4]، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الحقَّ سبحانَه عجَّل له الخيرَ؛ امتنانًا عليه، وفيه تناسبٌ لطيفٌ بين مسارعتِهم في الخيراتِ، وسرعةِ استجابتِه تعالى لدعائِهم.

معنى اللام ودلالتها ﴿لَهُۥ﴾:

عُدّي فعلُ الاستجابةِ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ باللام لدلالة ذلك على كمال الاختصاصِ بالداعي - وهو زكريا ﷺ - وشدَّةِ العناية به[5].

غرضُ العطفِ بالواوِ لا بالفاءِ:

إظهارُ الامتنانِ بالهبةِ لا تفسيرِ الاستجابةِ

آثر النَّظم استعمالَ الواو في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ لعطفِ جملة الهبةِ بالواوِ لا بالفاءِ؛ لأنَّه أرادَ بيانَ الامتنانِ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 135.
(2) الاحتراس أن يأتي المتكلّم بمعنى فيه دَخَلٌ وطعن، فيفطن له فيأتي بما يزيل ذلك الوهم ويخلّصه منه، يُنظر: القزويني، الإيضاح، ص: 192.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 576.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4910.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4910.

زكريا ﷺ، ولم يردِ التَّفسيرَ لعدم الاحتياجِ إليه، وعدمِ لزومِ التَّفسيرِ بالفاءِ[1].

فائدةُ استعمالِ لفظِ الهبةِ في رزقِ الأبناءِ:

الاستجابةُ محضُ هبةٍ ربّانيَّة

حَسُن استعمالُ لفظ الهبةِ في رزقِ يحيى لزكريا ﷺ بقولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾؛ لما في معنى الهبةِ من الإعطاءِ من دونِ قانونِ التَّكوينِ الإنساني[2] للميلاد، ومن دونِ أسبابِه الطَّبيعيةِ الجاريةِ في البشرِ، فهو محض هبة ربّانيَّة استجابةً لدعوةٍ إيمانيَّة.

نكتةُ إسنادِ فعل الهبة لضميرِ العظمة:

هبةٌ تجاوزتِ المستحيلاتِ رحمةً بالعبادِ

وإذا نظرتَ إلى حالِ زكريا ﷺ، وهوَ في حدٍّ من السِّنِّ لا حراكَ به، وإذا نظرتَ إلى زوجِه؛ ألفيتَها في حالٍ من العقمِ ممّا لا يُرجى معهُ الحبلُ، ينضمُّ إلى ذلكَ تجاوزُها سنَّ اليأسِ[3]، فلمّا تضافرت هذهِ المستحيلاتُ عادةً، ووهبَ لهُ سبحانه وتعالى الولدَ؛ أسندَ فعلَ الهبةِ إلى ضميرِ العظمةِ بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ عظمتَهُ تعالى تخرقُ كلَّ المحالاتِ، ولبيان اختصاصِه بتلك الرَّحمة.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

من بليغِ الهباتِ اختصاصُها ببعضِ الأُعطيات

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾؛ لإفادةِ القصرِ فإنَّ هذه الهبةَ الرَّبّانيةَ، وولادةَ يحيى من دونِ أسبابِها التَّكوينيَّةِ إنَّما هي مقصورةٌ على زكريا ﷺ قصرًا إضافيًا في أنَّه لم يعهَدْ في زمانه أن وُلِدَ مثلُهُ من أبٍ طاعنٍ في السِّنِّ وأمٍّ عاقرٍ، فهو امتنانٌ خاصٌّ به، ورحمةٌ تنزل عليه دونَ سواه.

دلالةُ اسمِ ﴿يَحْيَىٰ﴾:

الهبةُ كانت للولدِ والاسمِ والشَّهادة

لَمّا استجابَ الحقُّ سبحانَه لزكريّا ﷺ، ووهبَهُ الولدَ؛ وهب له

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 83.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9632.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469.

اسمَ ﴿يَحۡيَىٰ﴾ كذلك، فإنَّه يحيا على الطّاعةِ والعبادةِ في الدُّنيا، ويحيا في الكرامةِ والثَّوابِ المعطاءِ الجزيلِ في الآخرةِ[1]، ولمّا علم سبحانه وتعالى أنَّه سيموتُ شهيدًا - والشُّهداء أحياء عند ربِّهم يُرزقون - سمّاه يحيى، ففي الاسم إشارةٌ إلى خبرٍ غيبيٍّ سيكون له عليه السلام، فتكونُ حالُهُ طباقَ تسميتِهِ في الدّارين.

سرُّ تقديمِ هبةِ الولدِ على إصلاحِ الزَّوجِ:

تقديمُ الغايات على الوسائلِ للتَّنبيهِ على عظيمِ الفضلِ وكبيرِ الامتنان

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ هبةَ الولدِ على إصلاحِ الزَّوجِ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾، والتّرتيبُ الوجوديُّ أنَّ إصلاحَ الزَّوجِ مقدَّمٌ على هبةِ الولدِ، فيُسأل عن سرِّ تأخير ذكر إصلاح الزوج، والذي يظهر أنَّ الله تعالى أخبر عن الهبةِ أوَّلًا، باعتبارِها موضع المنَّة، وهي غاية الدُّعاء، ثمَّ ذكر إصلاحَ الزوج باعتبارِه الوسيلةَ، فالتَّقديمُ من باب تقديمِ الغايات على الوسائل، فتقديمُ الولدِ هنا أليقُ؛ لأنَّهُ مطلوبُ زكريا ومرغوبُه، وتقديمُهُ منْ بابِ الاهتمام، فإنَّه المطلوبُ الأعظمُ لزكريا عليه السلام[2]، ثمَّ ثنّى بإصلاحِ الزَّوجِ تثنيةً لا يرادُ منها التَّرتيبُ الوجوديُّ، بل ذكر الغايةَ ثم الوسيلةَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الإصلاحِ:

الإصلاحُ شاملٌ للإنجابِ والتَّربية وهو في البدن أظهر

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الإصلاحِ في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾؛ لبيان أنَّ الإصلاحَ طرأ بعد فسادٍ، فجعلها صالحةً لأبوابِ الخيرِ كلِّها، خالصةً لهُ بعدَ أن أصابتْهُ منَّةُ الله عليه بأنْ وهبهُ الولدَ، فبعدَ أنْ كانتْ عقيمةً كبيرةً غيرَ صالحةٍ بوجهٍ يستطيعُهُ غيرُ الله تعالى[3]، ويجوزُ أن يكونُ إصلاحُه تعالى زوجةَ زكريا عليه السلام بأن جعلَها مصلحةً في الدّينِ؛ فإنَّ هذا النَّوعَ من الإصلاحِ من أكبرِ أعوانِه

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 372.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 83.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469.

في دعوتِه إلى اللهِ تعالى، وكأنَّه ﷺ قد سأل ربَّهُ المعونةَ على الدُّنيا والدّينِ[1]، ولا مانع من ذلك فإنَّ إنجابَ الولد يحتاج إلى تربيةٍ وتأديبٍ وتعليم، ولا أنسب لذلك من مقام الأمِّ، وإن كان الأظهر أن يكون الإصلاحُ في شأنِ الإنجاب والولادة.

معنى اللّام ودلالتها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ دالَّةٌ على التَّعليلِ، ومعناها لأجلِه، فالإصلاح كان لزكريّا ﷺ وتكريمًا له، وأنَّه من عنايةِ الحقِّ سبحانَه به، وكان استجابةً لدعائِه.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعول:

تخصيصُ العبادِ بنوعِ رعايةٍ امتنانٌ ورفعةٌ

قُدِّمَ الجارّ والمجرور على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ والتَّخصيصِ، فقد كانَ ذلكَ الإصلاحُ خاصًّا بها من بينِ أهلِ زمانِها[2]، وفيه من الامتنان والحفاوةِ ما لا مطمعٌ في الاستزادة عليه.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

المسارعةُ في الخيراتِ كاشفةٌ عن بلوغِ المسرّات

جملةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مفترضٍ، فإنَّهُ لمّا ذكرَ استجابتَهُ وهبتَهُ؛ قيلَ: فما حالهُم، أو شأنُهم وقد أكرمَهم اللّهُ تعالى بهذه الكرامةِ؟ فكانَ الجوابُ أنَّهم يسارعون في الخيراتِ، ويجدّون، ويرغبون في أنواعِ أعمالِ الخيرِ، وسائرِ الأعمالِ الحسنةِ[3].

بلاغةُ جملةِ التَّعليلِ:

من سارع في الخيراتِ؛ جوزي بالثناءِ والرَّحمات

جملةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ – وما تلاها – تعليليَّةٌ لما تقدَّمها من الجملِ في الثَّناءِ على زكريّا ﷺ، أو ما ذكرَ من الأنبياءِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 182.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 83.

وما أوتوا من النَّصرِ والتَّمكينِ، وما استجيبوا فيه من الدَّعواتِ، وكيفَ أنجاهُم الحقُّ سبحانَه من كيدِ الأعداءِ والمتربِّصين ابتداءً من قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: 48]، فالضَّمائرُ المجموعةُ عائدةٌ عليهم جميعًا[1]، أو على زكريّا وأهله كما سيأتي.

غرضُ توكيدِ الخبرِ:

التَّرغيبُ في الامتثالِ بحالِ السّابقين

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بأداة (إنَّ) لأجلِ التَّرغيبِ في المسارعة في الخيرات، فليس المقصودُ بالتَّأكيدِ الرَّدَّ على شاكٍّ في الخبر، بل ليكونَ المخاطَب مشابهًا لأحوالِهم، وأنَّها ممّا يلتذُّ بذكرِه، ويعجبُ من أمرِه[2]، ولإفادةِ معنى التَّعليلِ والسَّببيةِ؛ فما كانَ استحقاقُهم ما أوتوهُ من الفضلِ والإنعامِ؛ إلّا لأنَّهم مبادرون إلى مسالكِ الخيرِ والجدِّ والمواظبةِ في تحصيلِها[3].

فائدةُ ذكرِ فعلِ الكونِ الماضي:

ديدَنُ النَّبيّين المسارعةُ في الخيرات

ذكرتِ الآيةُ فعلَ الكونِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وفي إسقاطه فإنَّ المعنى يبقى قائمًا، وذلك للدَّلالةِ على أنَّهم ثابتون مستقرّون في أصلِ الخيرِ[4]، وأنَّهم ليسوا طارئين عليه، وللإيذانِ بأنَّ صفتَهم هذه قد جُبلوا عليها، وهُيّئوا لها أوَّلَ خلقِهم جبلَّةَ خيرٍ[5]، وللإعلامِ بأنَّ المسارعةَ هي ديدنُهم في حياتِهم كلِّها.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُسَـٰرِعُونَ﴾:

استحضارُ فعلِ المسارعةِ وتصويرهُ كأنَّه مشاهد

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يُسَـٰرِعُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والحدوثِ في مسارعتِهم لأفعالِ الخيرِ، وكأنَّ مسارعتَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 136.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469 - 470.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 136.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 83.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 470.

تحصلُ الآنَ في مشهدٍ حاضرٍ تراه العيونُ، فهو أبلغُ وقعًا من التَّعبيرِ بالوصفِ الاسميِّ (مسارعين) الدّالِّ على الثُّبوتِ الخالي من الحركةِ، وهو أدعى في امتثال المخاطَبين.

تعيينُ مرجع الضَّميرِ:

الضَّميرُ راجعٌ لجملةِ الأنبياءِ أو لزكريا وأهلِه

أُسنِدَ فعلُ المسارعةِ في قولِه تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ؛ لعودِه على المذكورين من الأنبياءِ عليهم السلام، فإنَّهم استحقّوا الإجابةَ منه تعالى لمبادرتِهم أبوابَ الخيرِ، ومسارعتِهم فيها[1]، ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى زكريّا وأهلِه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمسارعةِ:

المسارعةُ في الخيرات طريقُ الموفَّقين ومسلك المرضيّين

عبَّرَ النَّظم بالمسارعةِ في قولِه تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ لما يدلُّ عليه فعلُ المسارعةِ من المبالغةِ في الإسراعِ بالخيراتِ لمن يسابقُ الآخرَ في دلالةٍ على عظيمِ أفعالِهم[3]، والسّياق دالٌّ على المسارعة لا المسابقة؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم يُسارعون في الخيرات إن رأوا بوادرَها، لا أنَّهم يُسابقون غيرهم.

نكتةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

للتَّشبيهِ شأنٌ في تحفيزِ النُّفوسِ وتحريكِ الهممِ

المسارعةُ في قولِه تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ من بابِ الاستعارةِ؛ للحرصِ والاهتمامِ وصرفِ الهمَّةِ والجدِّ لفعلِ الخيراتِ والفضائلِ؛ تشبيهًا للسّائرِ في مسارعتِه مداومةً واهتمامًا كي يصلَ إلى المكانِ المقصودِ الجادِّ في مسالكِه ومراميه[4]، فهو تشبيهُ القائمِ على الخيرات مداومًا عليها بمن يُسرع لبلوغِ مراده، فهي استعارةٌ تصريحيَّة، ونكتتها تصويرُ حال المداوم على الخيرات بالمسارع؛ لما في ذلك من تحفيز المخاطَبين على الامتثال.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 133.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 336.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 470.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 136.

الدِّقَّةُ في استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

المسارعةُ كائنةٌ في مـيـدان الـخـيراتِ لا خارجها

فِعلُ المسارعةِ يتعدَّى بحرفِ الغايةِ (إلى)، فيُقال: سارع إلى الشَّيءِ بأن يبادرَ إليه[1]، لكنّه جعلَها متعدّيةً بحرفِ الظَّرفيةِ ﴿فِي﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على عدمِ اغترارِهِمْ بتحصيلِ بعضِ الخيراتِ، بل الواجبُ عليهمْ إظهارُ الجدِّ والرَّغبةِ إلى تحصيلِ بعضٍ آخرَ منها، فجُعِلَتِ الخيرات ظرفًا للمسارعةِ لا إليها[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم في دائرةِ الخيراتِ غيرُ خارجين عنها، كأنَّها تحيطُ بهم إحاطةَ الدّائرةِ بما فيها[3]، فهم يُسارعون في ميدان الخيرات لا يخرجون منه، وهذا من بديعِ استعمال حرف الظَّرفيَّة في القرآن.

نكتةُ إيثارِ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ على (الصالحات):

الخيراتُ غاياتٌ ووسـائـلـهـا الأعـمـال الصّالحة

آثرَ النَّظمُ استعمالَ لفظ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ دون (الصّالحات)، وذلك أنَّ الصّالحات كثُر استعمالُها في القرآن الكريم وصفًا للأعمالِ، فالعملُ يوصف بأنَّه صالح أو فاسد، أي: مشروع مرضيٌّ أو غير ذلك، أمّا الخيرات؛ فهي غاياتُ الأعمال الصّالحات، فالمسارعة هي أعمالٌ صالحة، وعليه فلا يُقال: إنَّهم كانوا يعملون الأعمالَ الصالحات في الصالحات، وإنَّما يُقال في الخيرات، فالخيراتُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله، ويرضاهُ، فيدخل فيه جميعَ وجوهِ الخير والبر، فالخيراتُ غاياتٌ، ووسائلُها الأعمالُ الصّالحةُ.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ معرَّفًا بالألفِ واللّامِ الدّالَّةِ على الجنسِ؛ لإفادةِ الاستغراقِ، ويُقصدُ منه جميعُ الخيراتِ والفضائلِ، وأعمالُ البرِّ والإحسانِ، وعمومُ أعمالِ الخيرِ.

---

(1) الجوهري، الصحاح: (سرع).

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 69.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4911.

نكتةُ تقديمِ المسارعةِ على الدُّعاء:

جملةُ الدُّعاءِ من توابعِ جملةِ المسارعةِ

عَطْفُ فعلِ الدُّعاء ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ على فعل المسارعةِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ هو من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إشارةً إلى أنَّ جملةَ الدُّعاءِ من توابعِ تلكَ المسارعةِ[1].

فائدةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾:

دعاءُ الأبرارِ ثابتٌ ما تعاقبَ اللَّيلُ والنَّهارُ

في استعمالِ صيغة المضارعِ ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾ فائدةُ التَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ إيذانًا بأنَّ دعوةَ عبادِنا الصّالحين المؤمنين دائمةٌ مستمرَّةٌ، وأنَّها متجدِّدةٌ ساعةً فساعةً وحالًا فحالًا، وأنَّ هذا الحكمَ جارٍ في كلِّ زمانٍ، وهو دأبُهم على دعوتِنا إلى قيامِ السّاعةِ، وفيه تنبيهٌ لغيرِهم لأهميَّةِ الدُّعاءِ وأثرِه.

دلالةُ إيقاعِ فعلِ الدُّعاءِ على ضميرِ العظمةِ ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾:

الإيماءُ إلى قَبولِ الدُّعاءِ والتَّحبُّبُ من الدّاعين

جاء مفعولُ فعلِ الدُّعاءِ ضميرَ العظمةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾، فلم يقل: (ويدعون الله)، وسرُّ ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخبرَ عن دعائهم، فرَضيَهُ، فأشعر برضاه عنه وقبولِه بأن ذكر الضَّميرَ الدّالَّ على العظمة، مع ما فيه من التَّحبُّبِ والرِّفق بهم، ففرقٌ بين مقام الغيبة، ومقام التَّكلُّم.

نكتةُ تقديمِ ﴿رَغَبًا﴾ على ﴿وَرَهَبًا﴾:

الأنسبُ بالسّياقِ العامِّ والخاصِّ تقديمُ الرَّغبةِ على الرَّهبة

قُدّمَتِ الرَّغبةُ على الرَّهبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، أي: رغبةً بثوابِه وجنَّتِه، ورهبةً وفزعًا من عذابِه ونقمتِه[2]، فالإنسانُ بطبعِه مجبولٌ على الخيرِ والطَّمعِ قبلَ الرَّهبةِ والفزعِ؛ لذلك قَدَّمَ مثيلَه في سورةِ قريش في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش: 4]، والمناسب للسّياق تقديمُ الرغبةِ، فإنَّ فيه طلبَ الولدِ، وهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 84.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 440.

رغبةٌ ابتداءً في تحصيل الأنس والخير، وهو رهبةٌ انتهاءً لألم الوحدة وانتفاء الوارث.

ولّما كانَ قولُه تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ﴾ في سياقِ مدحِ أوليائِه والثَّناءِ عليهم؛ قدَّمَ الرَّغبةَ، ومعناه السَّعةُ، فهم لإيمانِهم يدعون ربَّهم حالَ رخائِهم، ثمَّ ذكرَ الرَّهبَ، وهو الخوفُ مع الاضطرابِ، فدعوتُهم حالَ رخائِهم، وحالَ شدَّتِهم وانزعاجِهم[1]، فإنَّهم ما ارتقت منزلتُهم عند بارئِهم إلّا بعرفانِهم ربَّهم في الرَّخاءِ قبلَ الشِّدَّةِ، ودعائِهم إيّاه في الأحوالِ كلِّها.

بلاغةُ إيثارِ الرَّغبةِ والرَّهبةِ على الرَّجاءِ والخوفِ:

الـرَّغـبـةُ فـوقَ الرَّجاءِ والرَّهبةُ خوفٌ مع التَّحرُّزِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ الرَّغبةِ والرَّهبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ﴾ على الرَّجاءِ والخوفِ، فلم يقل: (ويدعوننا رجاءً وخوفًا)؛ لأنَّ "الرَّغبةَ ألحقُ بالحقيقةِ من الرَّجاءِ، وهي فوقَ الرَّجاءِ؛ لأنَّ الرَّجاءَ طمعٌ يحتاجُ إلى تحقيقٍ"[2]، أمّا الرَّهبُ؛ فهو الخوفُ مع الحيطةِ والتَّحرُّزِ، وهو أوقعُ هنا وأبلغُ من الخوفِ[3].

دلالةُ ذكرِ ﴿وَكَانُواْ﴾:

ديـدنُ الموفَّقين ديـمـومـةُ الأعمال الظّاهرة والباطنة

في سياقِ مدحِ عبادِ اللّه تعالى بالخشوعِ ذكرَ فعلَ الكينونةِ: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾؛ لدلالةِ ذلكَ على ثباتِ خشوعِهم واستمرارِهم فيه، وأنَّ الحقَّ سبحانَه ما استجابَ لهم، وما أنالهَم من فضلِهِ إلّا بهذهِ الخصالِ[4]، فلم يكن ديدنُهم الأعمالَ الظاهرة في المسارعة في الخيرات، بل كذلك في الأعمال الباطنةِ، وهي الخشوعُ والالتجاء إلى اللّه تعالى.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4911.
(2) الهروي، منازل السائرين، ص: 35.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 577.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 70.

نوعُ اللام ودلالتها:

كمالُ اختصاصِ الخشوعِ له سبحانَه

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ دالَّةٌ على كمالِ الاختصاصِ في خشوعِهم وإخباتِهم لمن يدعونَه، ويرجون ثوابَهُ، ويخافون عذابَهُ، وهو الحقُّ سبحانَه؛ فلا خشوعَ لغيرِه تعالى، ولا خضوعَ لسواهُ.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الخشوعُ الخاصُّ بالله تعالى دليلُ القبولِ وأمارةُ الوصولِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ للحصرِ والتَّخصيص، فإنَّهم نالوا من اللّه تعالى ما نالوا؛ لاتِّصافِهم بهذهِ الخصلةِ الحميدةِ، وهي أنَّهم كانوا خاشعين للّهِ وحدَه دونَ سواهُ، فهم لا يخشون إلّا اللّهَ ربَّهم وخالقَهم، ومع إضمارِ المجرورِ دونَ إظهارِهِ – فلم يقل: (وكانوا للّه أو لربِّهم خاشعين) – مزيدُ تحبُّبٍ لهم.

فائدةُ استعمالِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ بالجمعِ ﴿خَٰشِعِينَ﴾:

خشوعُ الصّالحين عظيمٌ دائمٌ لا تقطعه المدلهمّاتُ ولا تفصله المهمّاتُ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ اسمِ الفاعلِ مجموعًا في قولِه تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ﴾؛ لأنَّهم كانوا على حالةٍ من الوجلِ والتَّضرُّعِ دائمة[1]، وبثباتِهم على خشوعِهم هذا نالوا ما نالوا من اللّهِ تعالى، ومجيءُ اسمِ الفاعلِ جمعًا ﴿خَٰشِعِينَ﴾ فيه دلالةٌ على عِظمِ خشوعِهم؛ فإنَّهم لَمّا كانوا خائفين خوفًا عظيمًا؛ كانَ ذلكَ حاملًا لهم على الخضوعِ للّهِ تعالى، والانكسارِ له[2].

دقَّةُ استعمالِ مفردةِ الخشوعِ:

الخشوعُ خوفُ القلبِ بالتَّفكُّرِ معَ سكونِ الأعضاءِ الظّاهرة

لَمّا كانَ معنى الخشوعِ هو "خوف القلبِ بالتَّفكُّرِ دونَ اضطرابِ الأعضاءِ الظّاهرة"؛[3] عبَّرَ عنه بقولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، فهو مرتبةٌ أعلى من مرتبةِ الخوفِ، وفي استعمالِ مفردةِ الخشوعِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 83.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 470.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 137.

بَداعةٌ وحُسنُ بيان، فقدَ آثرَها على مفردةِ الخضوعِ؛ لأنَّ الخشوعَ إخباتٌ، والخضوعَ لينٌ وانقيادٌ، فالأوَّلُ بالجوارحِ، والثّاني بالقلبِ، فاستعملَ الخشوعَ؛ لأنَّ المرادَ هنا دلالتُهُ على الاثنينِ معًا؛ لأنَّ الظّاهرَ علامةٌ على الباطنِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّركُ والوذرُ:

التَّركُ عامٌّ والوذرُ التَّركُ لقلَّةِ الاعتدادِ بالشَّيءِ

دعا زكريا ﷺ ربَّهُ ألّا يتركَه وحيدًا من غيرِ ولدٍ يرثُهُ علمًا وحكمًا ونبوةً، فقالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، فعبَّرَ بالفعلِ (تذرني)، وجذرُه من (الوَذْرِ)، ولم يعبِّرْ بفعلِ التَّركِ، ومعنى الوذرةِ قطعةٌ من اللَّحمِ صغيرةٌ[2]، فالفعلُ (يذر) دالٌّ على التَّخلّي عن الشَّيءِ إهمالًا له، وقذفَهُ لعدمِ الاعتدادِ به[3]، أمّا التَّركُ؛ فهو فعلٌ عامٌّ يطلقُ على التَّخلّي عن الشَّيءِ و"تخليفِ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي هو فيه، والانصرافِ عنه"[4]، ولمّا كانَ زكريا ﷺ حريصًا على التَّقرُّبِ من ربِّهِ ومولاه، فإنَّه دعا رَبَّهُ ألّا يذرهُ لما في هذا الفعلِ من التَّركِ مع عدمِ الاعتدادِ، ففي الدُّعاءِ خضوعٌ وتواضعٌ وإلحاح.

الفردُ والوحيدُ:

الفردُ الَّذي لا يختلطُ به غيرُه والوحيدُ من لا نظيرَ له

حكى الحقُّ سبحانَه عن زكريا ﷺ قولَه: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، فعبَّرَ بالفرديَّةِ عن خلوٍّ من الولدِ الَّذي يرثُه، والفردُ: ما أفادَ الانفرادَ من المقارنِ، كقولِنا: فلانٌ فردٌ في دارِه[5]، أي: إنَّه غيرُ مقترنٍ مع أحدٍ، فهو قائمٌ وحدَه في دارِه، أمّا الوحيدُ؛ فيُستعملُ في الشَّيءِ الَّذي لا نظيرَ له، ولا شريكَ معه، ولا يشابهه أحدٌ، وهو ممّا يوصفُ به اللّهُ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 578.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(3) الراغب، المفردات: (وذر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 400.

تعالى، وهذا لا يجوزُ في حقِّ زكريا ﷺ، فإنَّه لم يكنْ ذاك مطلبَهُ، بل كانَ يريدُ أن يكونَ معهَ ولدٌ يختلطُ به، ويؤنسُه، ويدعو إلى اللّهِ معه، ويرثُه من بعدِه.

المسارعةُ والمسابقة:

المسارعةُ ابتداءٌ نحوَ الخيراتِ والمسارعةُ الزّيادةُ فيها

في سياقِ مدحِه تعالى لعبادِه المتَّقين مثل زكريا ﷺ وأهلِه وولدِه والأنبياءِ السّابقين، ذكرَ أنَّهم ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، فجاءَ بفعلِ المسارعةِ، والمعنى: أنَّهم كانوا منغمسين سابقًا في فعلِ الخيراتِ، وما زالوا يسارعون فيها[1]، ولم يقل: يسابقونَ؛ لما يعطيه فعلُ المسابقةِ مِنْ أنَّهمْ قدْ بدؤوا السِّباقَ الآنَ، حيثُ ينطلقُ المتسابقونَ، وإنَّما أرادَ من وصفِ المدوحينَ في هذهِ الآيةِ أنَّهمْ يضاعفونَ من سرعتِهمْ، فيتحوَّلون منْ مجرَّدِ المسابقةِ إلى المسارعةِ، فإنَّهمْ قدْ تجاوزوا مرحلةَ المسابقةِ، وآيةُ ذلكَ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيةِ ﴿فِي﴾ معَ فعلِ المسارعةِ، فهم ثابتونَ مستمرّونَ في أصلِ الخيراتِ، بخلافِ التَّعبيرِ بحرفِ الغايةِ (إلى) الدّالِّ على أنَّهمْ خارجونَ عنْ أصلِ الخيراتِ، لكنَّهمْ متوجِّهونَ، ويسابقونَ للوصولِ إليها[2]، فحاصلُ المسابقةِ: الابتداءُ نحوَ الخيراتِ، وحاصلُ المسارعةِ: الاستزادةُ منها، والاستمرارُ فيها.

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 17/ 90.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 181.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»